1436 هـ - 2015 م

مؤسسة التحايا للإعلام
قسم التفريغ

تفريغ سلسلة

شرح الموافقات للإمام الشاطبي

للشيخ/ عمر محمود أبو قتادة

الدرس الواحد والثلاثون

31

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

الدرس الواحد والثلاثين

من شرح الشيخ عمر محمود أبو قتادة

لكتاب (الموافقات) للإمام الشاطبي –رحمه الله–

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، وإمام المتقين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه نور الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا هو الدرس الواحد والثلاثون من شرح (الموافقات) للإمام أبي إسحاق –رحمه الله-، ونحن الآن نكاد نصل إلى نهاية المقدمات العظيمة التي افتتح بها كتابه، وسنأتي في ختام البحث إلى الخلاصة فيها.

وصلنا إلى المقدمة الثانية عشر، وفيها يقرر الشيخ –رحمه الله- أفضل طرق تلقي العلم، وقد بنى هذه المقدمات على تصور عظيم وبناء هندسي مدروس، وهو يصر على أن المشافهة وثني الركب عند العلماء وأخذ العلم عن أفواههم هو أجلُّ الطرق وأفضلها، وهذا لا شك فيه ولا يخالف فيه أحد، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله، وقد يضطر طالب العلم إلى ما سميناه التحويلة، أي أن يأخذ الشيء على غير طريقته المعهودة لانسدادها عليه، وحينها؛ عليه أن يتعب إن أراد أن يصل إلى ما يصل إليه الطريق المعهود.

فالشيخ ذكر طريقين للعلم:

- الطريق الأول: طريقة المشافهة.
- الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهو أيضًا نافع في بابه لكن بشروط.

"الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهو أيضا نافع في بابه؛ بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله؛ ما يتم له به النظر في الكتب، وذلك يحصل بالطريق الأول، ومن مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه، وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال"، والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا، دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد".

إذن الطريق الثاني لتحصيل العلم هو قراءة الكتب، وهذه سمة علمائنا، وإذا قرأت تراجم العلماء؛ تجد أن بيوتهم فيها قناطير من الكتب، ولذلك نشأ علم الوراقة في أمتنا، والحق أنه لا توجد أمة من الأمم فيها هذا الكمُّ العظيم من المخطوطات، حتى من الهند والصين التي فيها الملايين واشتهر أهلها بالحكمة أو التراث اليوناني. وقد كانت المخطوطات سمة

الأمة (المجتمع)؛ فلا يخلو بيت من مخطوطة، وإلى وقت قريب والغرب يشتري المخطوطات -أو يسرق المخطوطات- من أمتنا، وإلى هذه اللحظة يسعون إليها، وأمتنا للأسف فقدت قيمة القراءة.

وقصة المكتبة الظاهرية[1] مثال لمعرفة مقدار جهل أمتنا ومعرفة ما كانت عليه وما آلت إليه:

خرج يومًا الشيخ القاسمي ماشيًا خلف المسجد الأموي، فوجد رجلًا معه عربة مليئة بالكتب (المخطوطات)، فتساءل من هذا العالم النحرير الذي يجمع هذه الكتب؟ لكنها كانت ستستخدم بحرقها في تسخين الماء للحمام! فثارت حمية العلم في نفس هذا العالم، وجمع أعيان دمشق وعلماءها، وصرخ فيهم صرخته ليجمعوا ما بقي من الكتب التي لم تحرق، وبهذا جُمع ما تمكن جمعه!!!

فهذا أمر أمتنا مع الكتب وهذا هو أمر المستشرقين مع الكتب؛ ولهذا تذهب إلى المتحف الوطني الكبير في لندن، تذهب إلى المتاحف الوطنية الكبيرة في باريس، فتجد عشرات إن لم نقل مئات الآلاف من المخطوطات، وكان النازيون من أكثر الناس رغبة وشهوة في جمع الكتب وجمع المقتنيات الأثرية كالصور وغيرها، وكان لهم نهم في هذا؛ يشترون وينهبون ويستولون على كتب الأمة، ولما سقط هتلر وقامت أوروبا الشرقية وأروبا الغربية؛ وجدوا مئات الآلاف من المخطوطات الإسلامية، حتى سمعت مرة أنهم وجدوا (مسند البخاري) الذي يقول عنه ابن حجر: "سمعت به ولم أره"، وكذلك في روسيا وبريطانيا نجد النهم والعناية بالمخطوطات ويعتبرونها ثروة.

ومن أمثلة عناية الغرب بالمخطوطات لمعرفة مجتمع أمتنا أنهم حققوا كثيرا من الكتب؛ ف(طبقات ابن سعد) حققها الغرب، وفينسيكي صاحب كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) هو يهودي ألماني، وقد قرأ الكتب الستة وأخذها وفرزها حرفًا حرفًا وفهرسها!

وأنا قرأت في (رحلات حمد الجاسر) أنه رشا موظفًا في مكتبة في ألمانيا الشرقية في برلين قبل سقوطها، ودخل فوجد أن هناك مخطوطة بيعت فقط قبل خمس سنوات من دخوله -وهو رجل معاصر-، محمود شاكر -رحمه الله- لما حقق (طبقات فحول الشعراء) يقول أن الخانجي[2] أحضر له دشتًا كبيرًا فيه مجموعة من الكتب فنظر فيها ورأى (طبقات فحول الشعراء)، ولما أراد

[1] هي التي سرقت وسميت بمكتبة الأسد، وتعتبر أكبر مكتبة في بلاد الشام، وقد أراد الخبثاء البعثيون أن يبنوها على البحر في اللاذقية من أجل إتلافها وتدميرها، والذي تدخل لحمايتها هم الغرب -المؤسسات مثل اليونسكو وغيرها-؛ لأن بناء المكاتب في مثل هذا المكان بسبب الرطوبة سيفسد الكتب.

[2] رجل عامي لكنه يحب العلماء، وهو الذي كان يطبع كتب التراث.

أن يحقق الكتاب تذكر المخطوطة وبحث عنها فلم يجدها، ثم طلب صورها من مكتبات العالم، فجاءته الصورة من إيرلندا!!! بمعني أنها أخذت من مصر في ذلك الوقت وذهبت إلى مكتبات إيرلندا!

هذا لتعرفوا –كما قررناه– أنه لا يوجد أمةٌ لها مثل هذا الإرث العظيم من كلام العلماء، وثانيًا لتعرفوا ما آل إليه أمر كتب العلماء، فلذلك الكتاب هو كما قال أحمد –رحمه الله–: مع المحبرة إلى المقبرة، الكتاب هو رفيق العلماء، وقد كان الخطيب البغدادي يوصف أنه إذا مشى لا يمكن أن تخلو يده من كتاب.

وهذا الذي نسمعه عن علمائنا من نهم بالقراءة نراه في الغرب الآن، وأنا أتكلم عن عموم الشعب، فهم يقرؤون القصص والروايات – ليست أمور مهمة، لكن المهم أنهم يقرؤون–، أما المتخصصون فقراءاتهم راقية جدًا في علومهم.

وأسباب عدم القراءة ذكرها يطول، والحديث عنها هو حديثٌ عن مآسي أمتنا وعن واقعها، وهي تحتاج إلى إعادة بناء الإنسان وكذلك إلى المال، يعني أن هناك أمورًا اجتماعية وفكرية وتربوية، وكذلك هناك أمور اقتصادية تنفر المرء من الكتاب، ولكننا لا يمكن أن نعيد عقل الأمة إلا بالقراءة، لا بد أن يتعلم المرء أن يقرأ: {اقرأ وربك الأكرم}، فالعطاء الإلاهي وكرم ربنا يكون بالقراءة، أما **التنفير من القراءة**، والتنفير من الكتاب، والكلام من مثل: "ورصاصة واحدة أفضل من مائة كتاب" هذه كلمات الجهلة، وكلمات اللصوص، وكلمات قطاع الطريق؛ **فالتنفير من فن القراءة** هو تنفير من فعل إيماني وصياغة إنسانية، ومن ينفر من القراءة بحجة ضرورة التلقي عن شيخ نجيبه بما قاله الشاطبي، وكل المشايخ الذي ترون أبناء القراءة، ومن اقتصر على الأخذ من شيخه يبقى مقلِّدًا أسيرًا، أو ينعتق، وانعتاقه أن يقرأ.

فالقراءة فنٌّ إيماني، والقراءة حفر في الذات وفي نفس الآخر، وحفر للمعلومة، القراءة هي الإنسان، والإنسان بلا قراءة يفقد إنسانيته؛ لأن **الإنسان هو الكلمة**: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}. والقراءة تجعل كلامك وفكرك راقيًا، وتجعل رؤيتك للوجود سليمةً.

ما هي مقومات القراءة التي تؤدي إلى النتيجة المطلوبة:

أعظم ما تصل إليه القراءة ما سميته في كتاب (فن القراءة) **بالقراءة الجدلية** ، وأنا أنبه؛ لا يوجد قراءة طهرية، لا يوجد قراءة انتقائية، كل الذين يقرؤون قراءة طهرية انتقائية لا يستفيدون، فعليك أن تقرأ قراءة استيعابية (أن تقرأ كل شيء فن من فنون العلوم)؛ والذي يسأل: ما هو أفضل كتاب في مصطلح الحديث؟ هذا سائح على العلم، يتصور معه ثم يرجع إلى عمله وحياته، والسياحة في العلم لا تنفع، لا بد أن تكون فيه مقيمًا.

فأولًا لا بد من القراءة الاستيعابية، ثم تصل إلى **القراءة الجدلية،** وهي أن يصبح بينك وبين الكتاب -أخذ وعطاء نقد، قبول، رد، تعليق، زيادة-، وهذا لا يأتي إلا بعد القراءة الاستيعابية للكتب.

وهناك **أمراض للقراءة**:

وأنبه على مرض مهم جدًا، وهي أن تتعامل مع الكاتب -مهما كان- كأنه لص يريد أن يبتلعك إلى داخله، وإلى فكرته حتى يأسرك.

في الابتداء عليك أن تقرأ من يستحق أن يسرقك من العلماء الثقات؛ لأنك لا تملك من أدوات الكشف، فأنت مضطر، كما يسلم الولد نفسه إلى أبيه؛ لأنه يخلص له ويعلم أنه يدافع عنه، لكنه حينما يكبر وينضج لا بد أن يتعامل مع الكتاب تعامل الصديق الذي بينه وبينه نحو الحاجز يأخذ منه ويذر يقبل منه ويطعن؛ فحينها إياك أن يبتلعك الكاتب، بل ضع دائما بينك وبينه حاجز في النظر، وتعامل مع الكتاب تعاملَ العالم، تعامل المدقق، تعامل البصير، تعامل الحاكم العادل مع الكتاب.

وأنا أنبه أن **القراءة أوسع من فعل النظر في الكتاب،** لكنه أصلها، فأنت تقرأ الصورة، تقرأ الكلمة، تقرأ الحدث، واليوم عليك ألا يبتلعك الكاتب، فعليك أن تقرأ بدقة واحتراف وأمانة، وأن تحذر من **قصف العقول** -سواء كان في الإعلام أو في الكتب أو الجرايد أو في جلسات بث الأخبار إلى آخره-، وقصف العقول هو أن يسرقك أحدهم إلى منهجه، إلى فكرته، إلى خبره، وللأسف الكثير من الناس إنما هم كالعجين؛ بمجرد وضع اليد تترك البصمات عليهم، وهذا مما قال الله فيه: {وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، و"الأذن الواعية" هي المنهج الإيماني.

طيب، **ماذا يطلب منا الشيخ في كتب علم المتخصصين؟**

قال: "الطريق الثاني: مطالعة كتب المصنفين ومدوني الدواوين، وهو أيضا نافع في بابه؛ بشرطين:

الأول: أن يحصل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله؛ ما يتم له به النظر في الكتب":

الشيخ علمنا بأن الكتب لا بد لها من مفاتيح، **وأول مفاتيح الكتاب أن تعلم المصطلحات،** والشيخ يقول أنه لا بد من الشيوخ لأنه يتكلم عن عصره، حيث يعرفون هذه المصطلحات، وهي غريزة في نفوسهم وتُتلقى في مؤسسة العلم التي يعيشونها، فلم يكتبوا فيها، ولكن صار ما صار، وصار لكل علم مدخل ولكل مذهب مدخل ولكل كتاب مدخل؛ فصار العلماء يصنِّفون في مصطلحات الفنون.

وبعض العلوم أنبه أنه لا يمكن أن تتعلمها بنفسك[٣]، بل لا بد أن تجلس وأن يعلمك إياها رجل وأن يبسط لك ويعطيك ما فيها.

فأول شروط قراءة الكتب أن تتعلم مصطلحاتها، ولكل علم مصطلحاته الخاصة به.

"وذلك يحصل بالطريق الأول، ومن مشافهة العلماء، أو مما هو راجع إليه، وهو معنى قول من قال: "كان العلم في صدور الرجال":

لأن الكتابة أمر حادث، وقد قال ربنا جل وعلا: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، وقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لا يَنْزِعُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا مِنَ النَّاسِ..)، أي لو أراد أن ينزعه لنزعه من الصدور، وكما قال سبحانه: {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}؛ فمكان العلم هو الصدور، العلم ما في القلب.

"ثم انتقل إلى الكتب، ومفاتحه بأيدي الرجال":

كيفية قراءة الكتب:

مازالت المعاني غلقة حتى يأتي العالم فيفتحها لك، **ولا يمكن للمرء أن يعرف قيمة الكتب حتى يتعلم كيفية قراءتها**، وهنا أذكر لكم قصة فيها فائدة مهمة عن كيفية قراءة الكتب:

في القسم الأول ثانوي، أنشأ أستاذ لنا –كان اسمه محمد ملص– أول لجنة مسرح للمسرح والأدب وغيرها، وأنا دخلت فيها، ثم في وقت قصير صرت رئيسًا لها، وكان لها نشاطات تتعلق بالدراما، وقراءة الكتب ومناقشتها، والندوات، فطلب مني أن أقرأ مسرحية (حياة محمد ﷺ) لتوفيق حكيم لنناقشها في الندوة، وكان قد شارك مدير المدرسة في المناقشة.

وأنا وقتها رجل غافل، لا أعرف، كنت قرأت القصص والمسرحيات العالمية: (كليلة ودمنة)، إرنست همنغواي، فيكتور هيجو، إبسل، كانت متعة، أقرأ قصصًا ولا أعرف وراءها شيئا مما يريده الكاتب.

فأنا قرأت مسرحية حياة محمد ﷺ قراءةَ متمتِّع، فلما جلست للمحاضرة؛ تكلمت بما أفهم: أن توفيق الحكيم صاغ القصة على صيغة مسرحية فقط في الجانب الفني **وليس الجانب الفكري**، يعني مثل ما صيغتْ سيرة النبي ﷺ شعرًا[٤]،

[٣] أنتم تعرفون أن أبو بكر الباقلاني من عظماء عقلاء البشرية، وقد قال: "أعطوني أي علم أنا أقرؤه وأفهمه"، فأحضروا له علم العروض، فقعد شهر وهو يحاول، واعترف أن مثل هذا العلم لا يمكن أن يؤخذ إلا بمدرس أو معلم.

[٤] الشاعر الصرصري صاغ سيرة النبي ﷺ بآلاف الأبيات.

فهذا فن -وتعرفون أنه مما يعاب على الأدب العربي كذبًا ودجلًا أنه ليس فيه مسرح-. القصد أنني تكلمت فقط في هذا الجانب الفني وظننت أني بلغت الغاية! فلما تكلم مدير المدرسة عن هذه القضية؛ وضحَّ أن الحكيم لم يرد الفن فقط؛ ولكن أراد الفكرة.

ومنذ ذلك الوقت انقدح في ذهني **كيف يكون الفن والأدب خادما للفكرة**، فتوفيق الحكيم لم يرد فقط الصياغة الفنية (صياغة السيرة بطريقة مسرحية)؛ لكنه أراد أن "**يُؤَنِّس النبوة**"[٥] -هذه عبارتي الآن-؛ فالفن (المسرح) هو صياغة عقدية، بمعنى أن الذي يكتب القصة إنما يكتبها من أجل عقيدة لا من أجل متعة حوار، أو من أجل قصة، ليس هذا المراد، **إنما المراد هو صياغة فكرية**[٦]، فأنت عندما تقرأ لا بد أن تعرف ما يريده الكاتب.

ولما نتكلم عن ابن طفيل، وقصة حي بن يقظان[٧]؛ فالذي كتبه ابن طفيل -الفيلسوف الأندلسي- أن طفلًا رماه البحر إلى جزيرة وربته الغزالة، ونشأ وبدأ يتعرف على الإله -إلى آخره- حتى وصل إلى الإيمان الكامل، فهو **صاغ قصةً لكنه أراد عقيدةً**، وهو أن الإنسان بفطرته مستغنٍ عن الوحي، وأن الفيلسوف بفكره يصل إلى ما يصل إليه النبي بالوحي، والدليل: الطفل عاش في الجزيرة لوحده وتأمل ووصل لقضية الحقائق من غير وجود ضرورة الوحي، ولما ذهب للمدينة التقى بالشيخ الإمام، فالتقت فكرته -أي: الفيلسوف- مع فكرة الوحي، هذا الذي أراده.

---

٥ و"أنسنة النبوة" هو مثل ما فعل العقاد: العقاد لما قال أن أبا بكر عبقري؛ أراد أن الإسلام لم يصغه بل صيغته إنسانية! ومن هو أبو بكر من غير الإسلام، من عمر من غير الإسلام؟؟ فقوله أن هؤلاء عباقرة مصيبة، لكن المصيبة الأعظم هو قوله: "عبقرية محمد"! والعبقرية إنتاج فكري، والنبي ﷺ ليس منتجًا فكريًا، بل هو منتج الوحي.

ف "أنسنة النبوة" أول ما دخلت علينا من الغرب، حتى أن كتاب (حياة محمد) لمحمد حسين هيكل -وهو رجل من الثلاثين من القرن الماضي- أراد به أن ينكر عالم المعجزة، ويقول أنه ﷺ رجل عبقري وعظيم، والوحي ليس فوق السنن الأرضية؛ ولذلك أنكروا المعجزات والكرامات والملائكة، ومحمد عبده لما فسر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ... وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ قال: الطير الأبابيل، هي: الجراثيم، طيب؛ كيف ترميهم حجارة من سجيل؟!

٦ لذلك أتقنَ عبد الوهاب المسيري وأبدعَ لما قال عن قضية "توم وجيري" أن توم وجيري هي صياغة فكرية للإنسان!! وهي صياغة العالم على طريقة العبثية، وهي عقيدة اللامنتمي ، فتوم وجيري يتقاتلان، لكن يتقاتلان لا من أجل شيء، فيقول -إن صح تفسيره وأنا أظن أنه ليس بعيدًا عن الحقيقة- بأنها لعبة لكنها صياغة فكرية، هو يريد أن يبني عقل الناظر إليه على عقيدة أن "الحياة عادية أن يتقاتل الناس ويتصالحوا دون سبب ولا مشكل في هذا"، وهذه ثمار الوجودية الهيبية التي غزت العالم: عقيدة اللامنتمي.

وهذه العقيدة (الوجودية الهيبية) لم تنتشر بالكتب، فلو سألت أحدا عن كتابٍ فلسفي في الوجودية لما وجد، بل انتشرت عن طريق القصة والمسرح.

٧ حي بن يقظان قصة كتبها ابن سينا، كل واحد كتب قصة بطريقة ما لينشر فكرة ما.

قال: "والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا، دون فتح العلماء، وهو مشاهد معتاد":

تكلمنا عن إمكانية **مقاربة** بالكتاب في وصولك لحالة الجلوس مع العلماء، لكنها ليست تامة، ولا يمكن أن يحصل هذا أبدًا على وجه الكمال.

"والشرط الآخر: أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين".

وهذه الكلمة من الشيخ **عظيمة وصحيحة** لكن **غير مقبولة**، وأنا أتحدث عن زماننا، والسبب: الناظر إلى الكتب الأقدمين وكتب المتأخرين يجد فرقًا مهمًّا بينها؛ وهو أن الناس كلما قلَّ علمهم احتاجوا إلى الشرح أكثر، ولذلك الأوائل يقولون أن البلاغة هي "اللمحة الدالة"، فكانت كتب الأقدمين كتب قليلة، كما قال ابن رجب في (فضل علم السلف على الخلف): "كلامهم قليل لكنه عظيم"، وكلام المتأخرين كثير لكنه أقل جودة وأقل منفعة **ولكنه ضروري،** لأنه كلما قلّ علم الرجل احتاج للشرح أكثر؛ **فالشرح نشأ لقلة العلم وليس لكثرته،** ومن هنا ما قاله زاهد الكوثري -رحمه الله- في المقارنة بين (مشكل الآثار) للطحاوي وبين (اختلاف الحديث) للشافعي، وأن كتاب الشافعي كتابٌ صغير والآخر كبير فأشمل وأحسن، وهذا من الجهل.

فتأصيل العلوم ليس كالبناء عليها؛ التأصيل يكون شاقًّا، والمثال يكون صعبًا، ويأتي الآخر ويبني عليها بعد ذلك، فيظن الناظر أن المتأخر أتى بما لم يأتِ به المتقدم، فاحذروا من هذه الكلمة الجاهلة والخاطئة: **"ما ترك الأول للآخر شيئا"**، هذه الكلمة مميتة للإرادات، مميتة للعقل، مميتة للفكر، والصواب: "**كم ترك الأول للآخر!**"؛ فأن تأخذ كلام الأولين فتصيغه علمًا هذا شيء عظيم؛ فالبخاري صاغ كتابه، وهذا الكتاب أنتج علومًا بعد ذلك؛ فهناك من ألف في تراجم البخاري، فصارت التراجم فنًّا في دراسة الفقه، وهناك من ألف في منهجه في الرجال، فصار هذا علمًا، فصار الكتاب ينشِئُ علومًا. وهذا ليس فقط في كتب الحديث، كذلك التفسير أنشأ علومًا: قواعد التفسير، طرق ترجيح التفسير؛ فعلم التفسير بكل ما فيه أنشأه وجود صحابيٍّ يفسر كلام ربنا سبحانه وتعالى.

لذلك هناك الكثير مما يمكن أن ينتجه طالب العلم لو تفكر، لكن ينبغي ألا يتمحَّل، وألا يبتعد عن حاجات الأمة، فأن تذهب إلى حاجات الأمة؛ هذا هو من الإبداع، على قاعدة أنه لا يكون الإبداع إلا إن قتل الماضي بحثًا.

فما نريد أن نقوله هو أنه لا يمكن لك الآن أن تصل إلى فهم كتب المتقدمين إلا بشروحها التي كتبها المتأخرون، واحتقار كتب المتأخرين[٨] معناه أن تنقطع النسبة بينك وبين كتب المتقدمين، فلا بد لك من السُّلم؛ لأنك صغير وأنا صغير والمتأخرون صغار، و**هذا مهم جدًا**.

فأنا قلت أن الإمام الشاطبي كلامه عظيم لأن **كلامه للعلماء**، وكما ذكرت في كتاب (فن القراءة) أن من أهمّ صور تحقيق القراءة الجدلية الواعية ومعرفة العلم؛ أن تقرأه في طبعته الأولى، في صورته الأولى؛ أي كيف نشأ هذا العلم، وإذا لم تصل لهذه المرتبة تكون بحاجة إلى أن ترتقي شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى كتب الأقدمين فتعرف مراد أهلها وكيف نشأت.

القصد أن معرفة كتب الأقدمين لا تتم إلا من خلال السُّلم، وهو شرح كتب المتأخرين؛ لأنها أوسع عبارةً، أكثر شرحًا، أكثر تسهيلًا للناظر، وهذا ما نحتاج إليه، لكن عليك أن ترتفع في النسبة، وإذا كان باستطاعتك اليوم أن تقول: "قال ابن عبد الوهاب"؛ حاول أن ترفع نسبتك؛ فكلما ارتفع نسبك في العلم كلما قلّ الخلاف، وبان العلم[٩]؛ لأننا لما تكلمنا عن قضية القرآن؛ قلنا أن من فوائد هذا المعنى تعليم طالب العلم الغوص على الجواهر في أماكنها الأصلية، مع معنى التعبد الذي هو حاضر في الذهن عند قراءة الكتاب.

إذن كلمة الإمام هذه عليها ما عليها من الكلام وقد وضحناه.

"وأصل ذلك التجربة والخبر":

هذان هما مصدرا العلم، لا يكون العلم عند أحد إلا بهاذين المصدرين: التجربة، والخبر؛ فلا بد أن تعرف العلوم كما قالها أصحابها، ولا بد أن تمارس ممارستهم؛ حينئذ ينتج العلم، لا بد أولًا من الملاحظة، لا بد من التجميع، لا بد من التجربة، ثم

---

[٨] هناك طريقة قبيحة انتشرت لتقبح بعض كتب المتأخرين –وهذه نبه عليها الأستاذ شاكر في مقدمة كتاب (أساس البلاغ) –، وللأسف السلفية المعاصرة تمارسه هذه اللعبة، وهي البحث عن أضعف حلقات الكتاب وتعميمها عليه، وكان يمارسها العقاد، ويمارسها بعض المشايخ المعاصرين، بأن يذهب إلى كتاب فقهي من كتب المتأخرين (يشرح فيه متنًا من المتون)، فيقول أنه لا قيمة له بسبب خطأ فيه؛ فهل يُقبّح الكتاب وإنتاج المتأخرين في الفقه لمجرد خطأ ؟ أضرب لكم مثالًا: كان مما قاله المتأخرون بأنه لو كُسر ظهر الرجل فخرج منيه؛ أيجنب أم لا؟ فهذه موجودة في الكتب لأنها مبنية على تصورهم أن المني مصدره الظهر، وهذا غير صحيح، وفي سورة البروج لما قال الله –عز وجل–: {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصّلْبِ وَالتّرَآئِبِ}، هذا الضمير لا يعود على المني، وقد انفرد الرازي في تفسيره (التفسير الكبير) بكون هذا الضمير يعود على الإنسان وليس المني، وهو أصوب ما جاء فيها، المني مكانه معروف (الخصيتين)، هذا هو مصنعه علميًا ولا يخرج إلا منه.

[٩] لو قلت لرجل: "قال عبد الوهاب"؛ فسيخالفك الكثير، لكن لو رفعت النسبة وقلتَ: "قال ابن تيمية"؛ سيقلُّ الخلاف، وإذا رفعت وقلتَ: "قال أحمد"؛ تزيدُ الهيبة ويقلُّ الخلاف، إذا رفعت أكثر وقلت: "قال سفيان الثوري"؛ يكون أفضل، ولما ترفع عن سفيان أكثر وتقول: "قال سعيد ابن المسيب"؛ انتهى الموضوع، حينها لن يقول أحد: "سعيد من مذهب كذا ومن جماعة كذا من السلف والخلف"، فإذا ارتفعت أكثر وقلت: "قال الصحابي، قال عمر"، طيب إذا انهيت الأمر وقلت: "قال رسول الله ﷺ"، فكيف إذا قلت: "قال الله"!

بعد ذلك الاستقراء، فلو سألني سائلٌ عن كلمة واحدة في كتاب الشاطبي تكون عموده كله؛ لقلت هي كلمة "**الاستقراء**"، والإمام الشاطبي ذكر هذا في كتابه كما تقدم وسيأتي كذلك فيما سيأتي من كلام خاصة كتاب الاجتهاد.

"أما التجربة؛ فهو أمر مشاهد في أي علم كان؛ فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما يبلغه المتقدم".

وهذا ليس في علوم الكونيات، لأن الكونيات وحدها مبنية على التراكم: الناس اكتشفوا الحديد واليوم وصل الحديد إلى أن يكون حاسوبا. لكن أنبه على نقطة -ذكرتها مرة في كتاب (العولمة وسرايا الجهاد)-: إياكم ثم إياكم -وهذا من الشر العظيم- أن تظنوا أن الإنسان المعاصر هو أذكى من الإنسان الأول، فليس الذي صنع الكمبيوتر أبدًا بأذكى ممن اكتشف رغيف الخبز!

أيُّ عين هذه، وأي عقل هذا الذي لمح هذا السر في حبة قمح؟! أن يأتي إنسانٌ المادة موجودة فيحولَها ويجمِّلَها ويصنع من المادة شيئا جديدًا هذا فن ولا شك ولا نغبطه حقه، لكن من الذي اكتشف هذا الشيء أولًا؟ كيف ذهبت عين هذا الخبير العظيم إلى معرفة وجود الحديد في الأرض؟ وأنتم تقولون اليوم أن صانع الكمبيوتر فيه إلهام وذكي، فكذلك الذي نفذ بصره إلى حبة القمح، ثم لم تستطع البشرية بعد ذلك أن تستغني عنها، وأنا أتكلم عن الابتداء والتأسيس.

فالقصد؛ **الكونيات تتراكم لكن القيم لا تتقدم**، وقول أن الإنسان يترقى في قيمه لعبةٌ من الشيطان؛ القيم لا تتقدم ولا تتطور، وقيم الجاهلي خيرٌ من القيم الجاهلية المعاصرة؛ من الشجاعة والكرم، واليوم تغيرت، فالقيم لا تتبدل ولا تتراكم، والإنسان هو الإنسان، ومن فقه القرآن أن تعلم أن الإنسان هو الإنسان، وأن الترقي والتقدم لا يكون في العلوم القيمية.

"أما التجربة؛ فهو أمر مشاهد في أي علم كان، فالمتأخر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما يبلغه المتقدم، **وحسبك من ذلك أهل كل علم عملي أو نظري؛ فأعمال المتقدمين -في إصلاح دنياهم ودينهم- على خلاف أعمال المتأخرين، وعلومهم في التحقيق أقعد، فتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، ومن طالع سيرهم، وأقوالهم، وحكاياتهم؛ أبصر العجب في هذا المعنى، وأما الخبر؛ ففي الحديث: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونه)** -هذا مع اشتهاره ليس بالصحيح، ويغني عنه لفظ "خير الناس، خير أمتي، خيركم"، أما "القرون" فجاءت في حديث لكن فيه ضعف بهذا اللفظ-، **وفي هذا إشارة إلى أن كل قرن مع ما بعده كذلك، وروي عن النبي ﷺ: (أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة، ثم ملك وجبرية، ثم ملك عضو)** -وهذا يدل على أن الأمة تنزل مرتبتها في الدين، ومن الدين العلم- **ولا يكون هذا إلا مع قلة الخير، وتكاثر الشر شيئا بعد شيء، ويندرج ما نحن فيه تحت الإطلاق.**

وعن ابن مسعود؛ أنه قال: "ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخضب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثم يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم؛ فيهدم الإسلام ويثلم، ومعناه موجود في "الصحيح" في قوله: (ولكن ينتزعه مع قبض العلماء بعلمهم؛ فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيضلون ويضلون) -ولفظ "يفتون برأيهم" اللفظ هذا لا يصح-.

وقال -عليه السلام-: "إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ؛ فطوبى للغرباء". قيل: من الغرباء؟ قال: "النزاع من القبائل"، وفي رواية: قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: "الذين يصلحون عند فساد الناس"، وعن أبي إدريس الخولاني: "إن للإسلام عرى يتعلق الناس بها، وإنها تمتلخ عروة عروة". وعن بعضهم: "تذهب السنة سنة سنة، كما يذهب الحبل قوة قوة". وتلا أبو هريرة قوله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح} الآية [النصر: ١].

ثم قال: "والذي نفسي بيده؛ ليخرجن من دين الله أفواجا، كما دخلوا فيه أفواجا"

وعن عبد الله؛ قال: "أتدرون كيف ينقص الإسلام؟ ". قالوا: نعم، كما ينقص صبغ الثوب، وكما ينقص سمن الدابة. فقال عبد الله: "ذلك منه"، ولما نزل قوله تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم} [المائدة: ٣]، بكى عمر؛ فقال عليه السلام [له]: "ما يبكيك؟ " قال: يا رسول الله! إنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل؛ فلم يكمل شيء قط إلا نقص. فقال عليه السلام: "صدقت"، والأخبار هنا كثيرة، وهي تدل على نقص الدين والدنيا، وأعظم ذلك العلم؛ فهو إذا في نقص بلا شك، فلذلك صارت كتب المتقدمين وكلامهم وسيرهم؛ أنفع لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، على أي نوع كان، وخصوصا علم الشريعة، الذي هو العروة الوثقى، والوَزَر، الأحمى، وبالله تعالى التوفيق".

نقرأ فقط المقدمة الثالثة عشر حتى نقف عندها إلى الدرس القادم إن شاء الله:

"المقدمة الثالثة عشرة:

كل أصل علمي يتخذ إماما في العمل؛ فلا يخلو إما أن يجري به العمل على مجاري العادات في مثله، بحيث لا ينخرم منه ركن ولا شرط، أو لا، فإن جرى؛ فذلك الأصل صحيح، وإلا؛ فلا".

هذه المقدمة هي القاعدة التي بها تعرف أصول الحكم القدري من الحكم الشرعي؛ وبها يعرف طالب العلم كيف يتميز الحكم القدري عن الحكم الشرعي، وإن شاء الله نتكلم فيه بما سيكفي، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة:

سؤال: كتب أحد علماء المغرب: "معضلة الدرس النصن ومفتاحه المصطلح، وأداته المنهج".

الشيخ: كلمة صحيحة:

- فمعضلة بمعنى مادة البحث، مادة البحث أن بين يدينا نص نريد أن نفهمه، هذه معضلة، فلا بد أن نحلله ونفككه ونعرف مراده، ولما تأتي إلى كتب شرح أصول الفقه تجد العلماء يشرحون كلمة الأصول لغويًا، ثم يأتوا إليها اصطلاحيًا، ثم يذكرون تنوعها في الخطاب؛ كلمة أصول في الفقه، كلمة أصول في اللغة، إلى آخره فيحللونها.
- والمفتاح هو معرفة المصطلحات.
- أما الطريقة لهذا فمنهج البحث، فهذه الطريقة لها منهج، والمنهج هو طرق استخدام الأدوات، كيفية استخدام الأدوات، كيف تستخدم مثلًا اللغة في تحليل النص؟ وما هو دورها؟ وأين تبدأ وأين تنتهي؟ كيف تستخدم المنطق؟ كيف تستخدم أي علم من العلوم؟ هذا هو الذي أراده، وكلمته صحيحة بلا شك.